# "مالك بن نبي" في عيون الآخرين..

**أ.البشير ضيف الله**

**جامعة الجلفة**

مهما حاولنا أن نحدّد موقع " **مالك بن نبي**"على صعيد الفكر العربي وتداعياته مشرقا،ومغربا، فإننا لا نفي الرجل حق قدره، لكن مهمتنا في كل هذا ما عبر عنه كثير من المثقفين والمفكرين العرب ممن عاصروه،أو جاءوا بعده بعد إطلاعهم على منحاه الفكري، ومواقفه على أكثر من صعيد، فقد كان مفكرا، ومصلحا، ومنظرا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى فهو إنسان مسلم بكل ما لكلمة إسلام من بعد إيماني، وفكري وكان يترجم إسلامه في سلوكه وأعماله،وأقواله.

كان يقدس الثورة كفكرة يفهم أنها إرادة تغيير هادف– كما يقول الأستاذ " **فوزي الحسن**"**(1)** الذي كان على علاقة وطيدة به استمرت لسنوات، وحفرت في مخيلته شواهد دالة على حقيقة وعظمة شخصية فذة جزائرية متوقدة يقول :

**<< كان ذا ثقافة واسعة، يجيد الحوار ويرد على سائله بشكل مقنع شاف، حتى أنه كان يستطيع تحديد اختصاص السائل العلمي لمحاولة توجيه الأسئلة حول أي موضوع. كان ينشر كتبه لغرض إيصال فكرة، ولذلك فهي تباع بسعر زهيد مما يوقعها بعجز يسده من جيبه>>(2).**

فالأستاذ " فوزي" يبرز لنا بصدق حقيقة معاناة " **مالك بن نبي**" في إيصال أفكاره رغبة في بعث عالم مختلف،عالم متجدد بعد سيل من الخيبات المتلاحقة، فالرغبة في الانبثاق، والسعي في تجسيده سمتان أخريان تميزان مسار الرجل الذي شخَّص أوضاع هذه الأمة.

يقول الدكتور" **مصطفى السباعي**" أنه:

**<< استطاع إبأسلوبه الذي تفرد به،وثقافته الغربية الواسعة مع ثقافته العربية الإسلامية أن يوجه إليه أن أنظار جيل من شبابنا المثقف الذي يتوق إلى الإصلاح مع احتفاظه بقوة العقيدة، وسلامة التفكير، وبدأ يرى في الأستاذ بن نبي رائده الفكري البعيد النظرة القوي الإيمان،المناضل بقلمه في سبيل الإسلام>> (3)**، مما يعني أن مالكا استقطب

Mokarabat

بفكره طلائع الشباب العربي التواق إلى وجهة راكدة عنوانها الردة، والاستعمار والضعف.

يقول الأستاذ "**عمر مسقاوي**":

**<< تنطلق أفكار ابن نبي لا لتضيف في المجتمع الإسلامي معرفة جديدة بالفقه،أو علما مستخلصا من تجارب الحضارة الحديثة، بل لتنظيم هذه المعارف في مفاهيم تربوية تسير بالإنسان خطوة متقدمة فهو يطرح الإسلام كملهم لقيمنا،وقادر على استعادة دور الإنسان مبرأ من ثقل الحضارة الإمبراطورية،وهو يرى أن الإسلام لا يقدم إلى العالم ككتاب،وإنما كواقع اجتماعي يسهم بشخصيته في بناء مصير الإنسانية>>(4).**

فالإسلام في منظور مفكرنا فكرة دينية عملية، واقعية خالية من التعقيد، والتشنجات الخارجة عن إطار القيمة الحقيقية المبتغاة من الاعتقاد الصادق، والصحيح لهذا الدين، فالإنسانية كل الإنسانية مدينة له، وبحاجة إليه كلما تداعت القيم، وتهاوت الطروحات ذات الطابع الفلسفي الماورائي،الغارق في الاستشراف والتمادي،إلاّ أنّ فلسفة الإسلام غير ذلك تماما عكس باقي الديانات الأخرى فالواقعية هي المنطلق الذي تجسده القيمة الدينية، والقيمة الفكرية المبنية أساسا على فاعلية الإسلام.

ويواصل الأستاذ "**عمر مسقاوي**":

**<< فقد أتاحت له نشأته في الجزائر أن يشهد يوميات الاستعمار تحمل حصيلة مئة عام قبله أو يزيد، وكان ذلك نقطة اتصال هامة كوّنت في فكرة الأستاذ مالك تجربة نقلت قلمه من صفحة الأرقام كمهندس إلى صفحة الفكر يتعرّض لمشكلات الحضارة بدلا من مشكلة الإنتاج الحضاري.**

**لقد وجد نفسه كمثقف جزائري أمام ترتيب ضروري لرسالته في المجتمع،فلا بد أولا من بناء الإنسان قبل بناء الآلة حتى لا نضع العربة قبل الحصان، فنقع في استحالة الوصول إلى الهدف الحقيقي>>(1).**

فبعد أن كان التكوين الأساسي لمفكرنا في مجال الكهرباء،أدرك أن المعركة الحقيقية هي معركة فكرية قبل أن تكون أي شيء آخر والصراع الفعلي لن يخرج عن هذا الإطار،

Mokarabat

وربما كان هو السبب الحقيقي لتداعي الحضارة الأم،الحضارة العربية بعد مسيرة فكرية ناجعة،ومنتجة استغلها أعداؤنا وجسدوها واقعا حياتيا شاهدا.

لذلك اتجه هاته الوجهة – كما يؤكده الأستاذ مسقاوي – لأنها البديل اللازم، والدور المنوط به قبل أي دور آخر كمثقف، ومفكر له نتاجه،وراؤه.

وممَّا قاله عنه " **أنور الجندي**" :

**<< مالك بن نبي يختلف كثيرا عن الدعاة المفكرين، والكتاب، فهو فيلسوف أصيل له طابع العالم الاجتماعي الدقيق الذي أتاحت له ثقافته العربية والفرنسية أن يجمع بين علم العرب وفكرهم المستمد من القرآن والسنة، والفلسفة والتراث العربي الإسلامي الضخم، وبين علم الغرب، وفكرهم المستمد من تراث اليونان، والرومان،والمسيحية>> (2).**

وهو ما يؤكده بدوره الأستاذ "**محمد المبارك**" حين يقول:

**<< إنه عربي مسلم، ليس هو من المجتمع الأوربي الذي عاش فيه بجسمه في شيء، وكان تعمقه في الثقافة الأوربية سببا في تحرره من نفوذها، ومعرفته لمصادرها، ولدوافعها الخفيه وبواعثها العميقة ولا سيما أنه جمع إلى جانب الثقافة العلمية ثقافة إنسانية تجمعت في قلبه ونفسه، في عاطفته وشعوره في عقله وتفكيره مآسي أولئك الملايين من البشر الذين يعيشون على أرض الجزائر خلال مدنية القرن العشرين، وأمثلة بارزة لانحطاط أهدافها، وغاياتها>> (1).**

لقد كان رغم غربته الدائمة خليفة حقيقية لما يعيشه الجزائري، والجزائر الوطن الأم باعتبارها جزء من أمّة كاملة تعاني ما تعاني، وبالتالي إن ارتباطه بها ارتباطا قويا عبر عنه كل الذين عرفوه، وأبرزوا شعور هذا المفكر اتجاه وطنه– وإن كانت ثقافته أوربية– فالعبرة فيما ذهب إليه كلٌّ الذين أخذنا آراءهم فيه أن الوطن،أو بالأحرى الجزائر كانت حاضرة بقوة في أهم مراحل حياته الفكرية بأحلامها، وآلامها، بكيانها وتجسيداتها بصراعها الشرس لمدينة القرن العشرين– كما يقول محمدالمبارك – وبجذورها، وارتباطاتها، وعمقها الحضاري الكامن، إلا أنّ نظرة " **مالك بن نبي**" كانت تصب في الصياغ الحضاري العربي، ككل والجزائر جزء هام في حلقة هذا الصياغ.

Mokarabat

ويشير " **محمد الميلي** " إلى القيمة التي تحظى بهـا كتابـات هـذا المفكـر العـالمي ، وإشعاعات فكره، و خلاصات تجاربه ذات البعد الحضاري الإصـلاحي فـي أوضـاع معيشة صعبة تتسم بالاستعمار والهوان فيقول:

**<< يستخلص بن نبي في كتاباته.. أن خلاص العالم الإسلامي يتمثل في تطويع الغـرب لروح الإسلام، فقد كان فكر "مالك بن نبي" مدعوا لأن يلعب دورا معتبرا بعد الاستقلال، لكن هذا الدور كان محدودا بفعل عاملين: الأول هو نظريته عن قابلية الاستعمار والتي استغلها أعداؤه ضده عندما جعلوها نوعا من التبرير للاستعمار الثاني هـو الظـرف الخاص الذي عرفته الجزائر بعد عام 1962م، والذي تغلبت فيه إغـراءات التجديـد.. وكذلك إغراءات التقليد للغرب وأنماطه الحياتية مما صرف النظر عن هـضم عـصارة الحضارة الغربية، والاستفادة منها إلى أقصى حد...>>(2).**

يقول الباحث "**أ.احميدة النيفر**"أستاذ التعليم العالي بالزيتونة:

**<<..ذات المقولة التي سيطوّرها بعد مالك مفكّران مغاربيان معاصران همـا عبـد الله العروي و محمد عابد الجابري.هذان المفكران اعتمد كل واحد منهما أدوات تحليلية أكثر دقة ميّزته بتمشٍ منهجي خاص، فإنهما يدينان بشكل واضح لمالك بن نبي حيـث أولى مسألة التحقيب التاريخي ..إنه جهد ركّزه المفكران المعاصران بعد ابن نبيّ للخروج من تداخل الأزمنة الثقافية ومن الضبابية التي تقود من المعقول إلى اللامعقـول ومـن اليسار إلى اليمين مما يجعل الوعي التاريخي قائما على التراكم وليس علـى التعاقـب وعلى الفوضى وليس على النظام .>> (3).**

ويقول الدكتور" **محمد مورو**":

**<< تستطيع أن تقرأ مالك بن نبـي عدة مرات، وفي كل مرة تكتشف جديدًا، تستطيع أن تقرأ مالك بن نبـي ثم تنسي كل ما قرأت، ومع ذلك تتـأثر بالرجـل وبأفكاره بشكل عميق، ذلك أنه لا يضيف إلى معارفك جديدًا متميزًا فقط، بل يحدث تغيرًا نوعيًا في ثقافتك وفي طريقة تفكيرك، وتكتشف دائمًا أنك متأثر بما طرحه الرجـل دون أن تدرى، وربما ظننت أنك نفسك الذي وصلت إلى هذه المفاهيم الصحيحة، ثم تعـرف أنها من تأثير مالك بن نبي غير المنظور عليك وعلى ثقافتك.**

Mokarabat

**فكر "مالك بن نبي" متجدد دائمًا، ذلك أنه طرح أوجاع الأمة وأمراضها التي مازلنا نعاني منها، وضرب في جذور أسباب التخلف وطرح أسباب النهضة بشكل عميق متجدد.**

**ذلك هو المفكر الأكثر تأثيرًا في الثقافة العربية والإسلامية المعاصرة، ولأنه كان من العمق والاتساع بمكان فإن أحدًا لا يستطيع أن يوفيه حقه أو يدرك ملامح هذا التأثير أو يحيط بها. مالك بن نبي هو نحات في عالم الثقافة، ذلك أنه نجح في أن ينحت بصورة عبقرية مجموعة من المفاهيم والمصطلحات كانت كلها معالم في طريق الثقافة ومحطات في طريق البحث الثقافي العرب المعاصر.**

**نحت "مالك بن نبي" الكثير من المفاهيم والمصطلحات الرائدة والتي أصبحت اليوم مدخلاً لكل العمل الفكري أو معظمه فهو الذي نحت مصطلح القابلية للاستعمار، والذي عبر به عن أن هناك حالة اجتماعية واقتصادية وثقافية سمحت للاستعمار باحتلال بلادنا، وأن التخلص من الاستعمار دون التخلص من هذه الحالة لن يجدي شيئًا، ولعل تجارب البلاد العربية والإسلامية بعد مرحلة الاستعمار المباشر قد أكدت هذا الأمر، فمع استمرار عوامل وأسباب القابلية للاستعمار فشلت مشاريع النهضة، بل وعاد الاستعمار بصورة أو بأخرى.وهو الذي نحت مصطلح " مشكلات الحضارة " والذي أكد به أن المسألة في جوهرها مسألة حضارية...>> (1).**

فعلا، فقد موقع هذا المفكر طلائعيا في استنفار القدرات الكامنة، وتحديد ملاجئ الكمون التي يفترض أن تتألق انطلاقا من الإدراك الفعلي لعمق المشكلة التي تعاني منها الأمة من منظور فكري واقعي بعيدا على التجريد السافر الذي ينثالُ على الفرضيات المثلى في تقصي الحقائق والوجهات الملائمة وفق أطر يقتضيها الرّاهن..

إنّ " **مالكا**" بموضوعيته في تحليل الأمور، ومنهجيته ودقته في اختيار الألفاظ كان بمثابة مرحلة النضج الفكري في الفكر العربي الإسلامي كدليل عمل للثورة، وأسلوب مواجهة الاستعمار– كما يقول الدكتور" **أسعد السحمراني** " لذلك فالمعركة معركة فكرة، والفكرة لا تكون فكرة ما لم يعبر عنها.

Mokarabat

من هنا انضوى هذا المفكر المنبثق ذي الخاصية الجزائرية يحدد الأسباب، ويضع البدائل ويبني مشروعه الذي كان فعلا بديلا حضاريا من منظور عربي إسلامي ناجع.

**<< إن فكر مالك بن نبي كان منصبًّا كله في كيفية نشوء الحضارة،لأنه عاش في فترة كان العلم الإسلامي يشهد انحطاطا و جمودا على جميع المستويات،فأراد بفكره هذا أن يساهم حتى ينهض العالم الإسلامي من غفوته ويعيد لنفسه مجده السابق ،وبذلك يضمن لنفسه شروط الحياة و العيش ...>> (2).**

يقول الدكتور "**بشير مصيطفى**" :

**<<.. وظل ابن نبي ملتقى ممتازا لاجتهادات كل من ابن خلدون، ابن رشد، وابن باديس هذا الأخير الذي التقاه على محور التعليم وتشكيل النخبة المتعلمة ولو بطريقة مختلفة وهذا لا يهم كثيرا، واستمر الرجل في نقد حاضر المسلمين وأنهم سبب الاستعمار الذي لم يقم بأكثر من استغلال "قابلية الشعوب للاستعمار" ، واليوم ونحن نقترب من نصف قرن من رحيل الرجل بقيت نفس الإشكاليات مطروحة ، وتحقَّق من تنبؤاته الكثير وأصبحت "الأفروآسيوية" فكرة جاهزة أمام الصينيين الذين شرعوا في التوسع إفريقيا من خلال استثماراتهم ونظرتهم "الكونفوشيوسية" للأشياء، أما مشكلات الدولة الإسلامية ومنتجات الحكم بالشريعة فنحن نرى كيف غذت ما يسمى بالإرهاب كظاهرة عالمية تشكِّل رد فعل لتعطيل وقع في التاريخ الفريضة الأساسية هي "الجهاد في سبيل الله"، تماما مثلما غذت تشتت التيار الإسلامي الذي كان حبيس استثمار الحريات المتاحة في اقتراح أفكار حية بدل الإمعان في النمطية الفكرية..>> (1).**

ونختتم هذا الفصل بما قاله الرئيس الجزائري " **عبد العزيز بو تفليقة** " في رسالته إلى الملتقى الدولي الذي نظمه "المجلس الإسلامي الأعلى" حول فكر العلامة "**مالك بن نبي**":

**<<إنَّ بن نبي تميز عن الحركة الإصلاحية التي قادها الأفغاني و محمد عبدو و إقبال و الكواكبي و رشيد رضا ، لأن هؤلاء توقعوا أن يعود العالم الإسلامي إلى أحضان التاريخ في صفة كيان حضاري موحد. أما بن نبي فكان يرى أن العالم الإسلامي ليس كيانا معزولا عن بقية العالم ،أو قادرا على مواصلة تطوره دون التأثر بالآخرين و التأثير فيهم ،ويعتقد بن نبي أن العالم الإسلامي موجود في الدراما الإنسانية بصفتيه فاعلا و**

Mokarabat

**شاهدا،ويفرض عليه هذا الوجود أن يوفق بين حياته المادية وحياته الروحية و مصير الإنسانية ...**

**إنَّ نهضة الإسلام لا يمكنها أن تحصل إلا في شكل إسهام داخل مجموعة عالمية كـــان يسميها "الحضارة الإنسانية"...>>(2).**

Mokarabat